

مسارات تسلل الشيطان إلى قلب الإنسان وسبل مواجهتها

عرض مسارات تسلل الشيطان وسبل مواجهتها في الحياة اليومية

إن استقراء التجارب الإنسانية يُظهر أن سبب سقوط الأفراد أو صعودهم غالباً ما يكمن في تغيير بسيط، أو قرارٍ مُتزلزل، أو مجرد غفلة عابرة. فمسيرة الحياة مليئة بمحطات مفصلية تبدو عرضية في ظاهرها، لكنها تكشف عن عمق شخصية المرء وإيمانه وبصيرته.

أحياناً، نتخذ قراراً بنية حسنة، لنكتشف لاحقاً أنه قد أبعدهنا عن المسار الصحيح. وفي أحيان أخرى، تأخذ حادثة يسيرة، كنجاح ظاهري أو فرصة بسيطة، حجماً في أذهاننا يفوق قيمتها الحقيقية. في مثل هذه اللحظات، تعمل قوة خفية تُسمى تسلل الشيطان؛ قوة نسمع عنها كثيراً، ولكننا قليلاً ما نُحدد حضورها وتأثيرها في سلوكياتنا اليومية المعتادة.

كثيرون يظنون أن تسلل الشيطان يبدأ بمعصية صريحة أو إغواء واضح، لكن الحقيقة أن تدخله لا يأتي دائماً بصورة مواجهة مباشرة أو إغراء فاضح. أحياناً يتخفى في هيئة قلق داخلي، أو روحانية سطحية، أو حتى هموم تبدو مقدّسة. يحزّف الذهن بهدوء، ويعيد رسم الحدود الروحية تدريجياً، فيفتح طريقه نحو القلب. وغالباً ما يصيب هذا التسلل أولئك المنشغلين بطلب الصواب، لكنهم يجهلون دقة الطريق وتعقيداته.

سنتناول في هذا البحث مسارات تسلل الشيطان؛ وأتت كيف تُسهّم الغفلة، وتغيّرات الحياة، وضعف الشكر، والنظرة الناقصة للتوحيد في توفير الفرصة لهذا العدو. إن مسارات يتخذها الشيطان للتأثير على الإنسان غالباً ما تبدأ بـ الهَمِّ، أو الخوف، أو العبادة، أو حتى حُسن النية؛ ولكن إذا لم نتوخ الحذر، فإنها تنتهي إلى تحوُّلات داخلية قد نستغربها نحن أنفسنا بعد سنوات.

كيف تُشكّل الرؤية التوحيدية درعاً واقياً ضد تسلل الشيطان؟

يُشبه التفكير التوحيدي قلعةً حصينةً تمنح تسلل هذا العدو الخفي إلى ذهن الإنسان وقلبه؛ فإذا غابت رؤية حضور الله في تفاصيل الحياة كافة، يصبح الذهن تدريجياً مُهيأً لاستقبال الوسوس المُبطّنة. وفي هذه البيئة، يتسلل الشيطان عبر فجوات معرفية وعاطفية دقيقة، ويعمل على إزاحة الحدود التوحيدية شيئاً فشيئاً.

وكما أن مرضاً مُعدياً يُصيب الجسد الضعيف على نحو أسرع، فإن الشيطان يتغلغل بسهولة أكبر في عقول تخلت أو تهاونت في تبني الفكر التوحيدي. في المقابل، من جعل التوحيد محوراً لرؤيته وعمله، يرى دائماً يد الله خلف الحوادث والوقائع، وهذه النظرة بالذات هي ما تُكسبه مناعة ضد المخاوف والوساوس والشكوك.

إنّ الموحد الحقيقي لا يقع في دوامة القلق المُفرط تجاه المستقبل، أو الحسرة على الماضي، أو اضطراب اللحظة الراهنة. فهو يؤول كل حدث ضمن إطار الحكمة الإلهية، وهذا التفسير يُحصّن ذهنه من التسلل الشيطاني التدريجي. ولهذا، فإن الله لا يأذن للشيطان بالتسلط على مثل هؤلاء العباد^١؛ بل تتحول الوسواس بالنسبة لهم من مصدر تهديد إلى فرصة للنمو ووسيلة لالتجاء أكثر إلى الحق سبحانه.

عندما يتجاهل الإنسان يد الله الحاكمة في مجريات حياته، فإنه بذلك يفتح أبواب تسلل الشيطان. فالقلق، والشك، ووساوس ذات طابع ديني ظاهري، والشعور بالوحدة أمام المجهول، هي كلها نتاج النظرة غير التوحيدية. أما من يجري التوحيد في رؤيته وسلوكه، فإنه يكون في مأمن من التسلل الشيطاني الخفي أو الظاهر. ومن منظور قرآني، يُعد الإيمان بالغيب شرطاً أساسياً للهداية.^٢ وهذا الإيمان ليس مجرد قناعة نظرية، بل يجب أن ينعكس في أسلوب حياة الفرد؛ فالمُوحّد يرى حضور الله ورقابته في قراراته الخاصة، وعلاقاته الاجتماعية، بل وفي نظرتة للشدائد والنعم. إن هذه الرؤية هي الدرع الأهم والأقوى في مواجهة تسلل الشيطان.

في كل موضع يكتنف فيه الإنسان الشك، أو يملكه الخوف من المستقبل، أو يعتره شعور بالعجز والضياع والوحدة، فليعلم أنه قد وقع تحت وطأة هجوم العدو الخفي. في هذه اللحظات الحرجة، يكون تذكّر ربوبية الله والعودة إلى النظرة التوحيدية الفطرية بمثابة دواءً روحياً يقطع استمرارية تسلل الشيطان ونفوذه. إن التفكير التوحيدي ليس مجرد عامل نجاة في الأزمات، بل هو أساس يُبنى عليه التربية الداخلية وتحقيق التوازن الروحي والسلوكي في جميع الأحوال. فالذين رسخت لديهم هذه النظرة، إذا زلّوا للحظة، عادوا سريعاً؛ لأن قلوبهم ما زالت متصلة بالمحور الإلهي. لا تكمن العبرة في طريق الهداية بشدة

١ إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا؛ سورة الإسراء، الآية ٦٥
٢ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...؛ سورة البقرة، الآيتان ٢ و ٣

الوساوس، بل في مدى قوتنا وثقتنا بالله وعمق ارتباطنا به. فمتى رأينا الله المصدر الوحيد للنفع والضرر، حافظنا على مناعتنا ضد تسلل العدو ومكره.

دور الشكر في مواجهة التسلل الخفي للشيطان

يصرّح الشيطان بأنه سيهاجم الإنسان من جهات متعددة، ثم يُعلن نتيجة هذا الهجوم قائلاً: «وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ»^٣. تشير هذه الآية إلى أنّ من أهم مسارات تسلل الشيطان إبعاد الإنسان عن الشكر. فهو يبدأ بتقليل شعورنا بالنعمة، ثم يرسخ **الغفلة** والجحود، فيهيئ بذلك مدخله إلى القلب والعقل. لكن ما هو الشكر، وما سر أهميته في هذه المواجهة؟ في نظرة سطحية، قد يُفهم الشكر على أنه مجرد ردّ فعل لفظي كقول "الحمد لله". لكن في المنظور الأعمق، الشكر هو وعي دائم وفعال بمنشأ النعم، وإدراك لدور الإرادة الإلهية وحضورها في كل لحظة من لحظات الحياة.

إنّ الإنسان الشاكر لا يرى العالم فوضى أو مهملاً، بل يلحظ وراء كل حدث إرادة حكيمة. ولهذا فالشكر ليس مجرد فضيلة أخلاقية؛ بل حالة يقظة داخلية واتصال مستمر بالله. أمّا حين تضعف هذه الصلة أو تنقطع، يبدأ نفوذ الشيطان. عندما تُصبح النعم مألوفة وعادية في نظر الإنسان، فلا تذكره بخالفه، تتشكل الغفلة. هذه الغفلة هي بالذات الفراغ الوجودي الذي يحتاجه الشيطان ليغزو عقل الإنسان وقلبه. إنّ غض البصر عن النعم الظاهرة والباطنة يوقع الإنسان تدريجياً في فخ الاستياء، والشعور بالظلم، أو وهم الاستغناء والغرور. تُشكّل هذه الحالات النفسية بؤرة مناسبة وخصبة لنفوذ الشيطان. نرى الكثيرين يتدمرون باستمرار من وضعهم المالي أو المهني، متجاهلين نِعَم الصحة، والأمن، ودفء العائلة، وفرص النمو الروحي. هذا الاستياء يزرع بذور الاعتراض والكفران في القلوب، ويؤدي مع مرور الوقت إلى تكوّن أفكار سلبية، وغضب، وحسد، ويأس. على النقيض من ذلك، فإن الإنسان الشاكر يوجّه ذهنه نحو الممتلكات بدلاً من الانشغال بالسلبيات والمفقودات، مما يُسرّع مساره في الترقّي الروحي والمعنوي. الشكر يتجاوز كونه مجرد تأدية حق للنعمة؛ بل هو حالة من يقظة دائمة تمنع استغلال الشيطان للثغرات النفسية. إنه يُبقي الإنسان فاعلاً، ومسؤولاً، ومستيقظاً في اللحظة الراهنة، ويحرره من أسر حسرة الماضي وهاجس المستقبل. إن هذا الحضور الواعي في الزمن الحاضر هو أحد أهم موانع تعيق التسلل الشيطاني التدريجي.

^٣ ثُمَّ لَا يَبْتَئُهُمْ مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ؛ سورة الأعراف، الآية ١٧

يُعدُّ الشكر ترجمة عملية لمفهوم التوحيد؛ إذ يقود الإنسان إلى إدراك أن كل ما يمتلكه إنما هو عطاءٌ إلهي، وأن كل ما يطرأ يقع في إطار حكمته سبحانه. هذا الإدراك التوحيدي يمنح الشاكر توازناً نفسياً فريداً: فهو لا يغتر بالنصر، ولا ييأس عند الهزيمة. هذا التوازن الروحي تحديداً هو ما يكرهه الشيطان ويسعى دوماً لزعزعته وتقويضه.

يمكن النظر إلى الشكر باعتباره درعاً وسلاحاً في آن واحد لمواجهة تسلل الشيطان؛ إنه أداة تُنير العقل وتُبقي القلب يقظاً. الشكر استراتيجية تربوية وإلهية لمكافحة عدو أعلن صراحة عزمه على إغواء الإنسان.^٤ وفي عصرنا الذي عمته الغفلة، يبقى الشكر أحد أهم الوسائل للحفاظ على اليقظة، وتقوية الاستقامة، وتحييد النفوذ الشيطاني الخفي.

دور الغفلة في فتح أبواب تسلل الشيطان وخداعه

عندما يكون الإنسان واعياً لموقفه ومستشعراً للخطر، تزداد حييطته وحذره. ومن أخطر التحديات التي يتجاهلها الكثيرون هي عداوة الشيطان المستدامة. لقد أعلن الشيطان صراحة: "فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ"^٥ أي هناك حيث يسير الإنسان نحو النمو والسمو.^٦ هذا التحذير يؤكد أن نفوذ الشيطان ليس حكرًا على المنحرفين، بل يستهدف في الدرجة الأولى أولئك الذين يسيرون في طريق الهداية. إن الشيطان كمهاجم خفي؛ يكمن متربصاً بلحظة غفلة لينقض على ذهن الإنسان وقلبه. ولهذا، قال الإمام الصادق (عليه السلام) ببالحكمة: «إِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ عَدُوًّا فَالْغَفْلَةُ لِمَادًا؟»^٧ فالغفلة هي التجاهل المتعمد لخطر يهدد بتحويل مسار الإنسان عن الطريق الإلهي. فكما أنّ الشيطان جادّ في عداوته، يجب أن يكون الإنسان جادًّا في مراقبة نفسه؛ إذ إن الغافل يقف أمام الوسواس بلا درع.

يُلقب الشيطان بـ "الطائف"؛ لأنّه يدور باستمرار حول قلب الإنسان، مُنتظراً لحظة سهو كي يتسلل. وكاللص الذي ينتظر نوم الناس في بيوتهم، ينتظر الشيطان غفوة القلوب؛ وهي لحظة ينسى فيها الإنسان الله، وغاية خلقه، ومسؤولياته. ومن هذه النقطة بالتحديد يبدأ تسلل الشيطان. بيد أن الله، كما عرفنا بالشيطان كعدو، بيّن لنا سبل المواجهة. ومن أهم هذه السبل: إحياء ذكر الآخرة واستحضار محضر الله.

إن ذكر الآخرة هو خروج من الغفلة، ويُشكل عائقاً جوهرياً أمام تسلل الشيطان.^٨

^٤ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ؛ سورة ص، الآية ٨٢

^٥ . سورة الأعراف، الآية ١٦

^٦ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ؛ سورة الأعراف، الآية ١٦

^٧ بحار الأنوار- ط دار الإحياء التراث، العلامة المجلسي، ج ٧٠، ص ١٥٧

^٨ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَى الدَّارِ؛ سورة ص، الآية ٤٦

تأتي هجمات الشيطان من جهات متعددة؛ لذا على الإنسان أن يظل مُتيقظاً تجاه أربعة محاور أساسية لعقله وقلبه: الماضي، المستقبل، دوافع ذات مظهر ديني، والمعاصي الظاهرة.

تجدد الإشارة إلى أن نفوذ الشيطان ليس مقترناً دائماً بالفساد والمعصية الظاهرة؛ بل قد يتسلل أحياناً تحت غطاء روحانية سطحية. وقد شهد التاريخ أمثلة لأناس كانوا أهل عبادة، ولكن الشك في مسألة الولاية حاد بهم عن نصرة أمير المؤمنين (عليه السلام).^٩ هذا دليل قاطع على أن التدين بلا ولاية وبلا بصيرة قد يمهد الطريق لتسلل الشيطان. في الحقيقة، أي عمل ديني ينفصل عن مسار الولاية قد ينتهي إلى انحراف؛ إذ يجب أن تكون وجهة جميع الأعمال نحو الوليِّ المعصوم، وهو الخبير الذي يوصل الإنسان إلى غاية خلقه. فحتى انحراف يسير عن هذا المسار قد يجزّ الإنسان دون قصد إلى الضلال.

ومن المهم أن ندرك أنّ الشيطان لا يشغل نفسه باغواء أهل الباطل؛ فهم أصلاً في قبضته. تركيزه الحقيقي على الملتزمين بالهداية. ولهذا يمكن أن تكون هجماته مؤشراً على مستوى يقظة الإنسان أو غفلته. الشيطان يُشبه فيروس يُحدث "حمى" تجبر الجسد على رد فعل دفاعي؛ فإن كان الإنسان يقظاً، تحولت وساوس إلى حافز للنمو والاستقامة؛ أما إن غفل، أصبحت تلك الوسواس جذور انحرافه وسقوطه.

كيف تتحوّل تغيّرات الحياة إلى أرض خصبة لتسلل الشيطان؟

يُشكّل التغيير جزءاً أصيلاً وطبيعياً من الوجود الإنساني؛ فقد يكون مرغوباً وباعثاً للأمل كالزواج أو البدء بمسار جديد، وقد يكون غير مرغوب ومحفوفاً بالمشقة كالمرض أو الفقد. إن القاسم المشترك بين كل هذه التحولات هو حالة من عدم استقرار النفس واضطراب الفكر؛ وهي فترة لم يعتد فيها الإنسان بعد على الوضع الجديد بينما ابتعد عن الحالة السابقة. وفي خضم هذا الاهتزاز وعدم الاستقرار، تنهيا الأرضية الأمثل لتسلل الشيطان.

تبيّن آيات القرآن أن من طرق دخول الشيطان إلى قلب الإنسان هجومه من الأمام؛^{١٠} أي من جهة مستقبل لم يحدث بعد، لكنه يملأ العقل بالقلق والشكوك والتساؤلات: «ماذا سيحدث؟»، «ماذا لو فشلت؟»، «هل سأقدر على المواجهة؟». هذه الأسئلة طبيعية، ولكن الشيطان يستغلها بتضخيم مخاوف وإثارة هواجس وبناء صور ضبابية ومخيفة عن المستقبل، فيشلّ الإرادة ويضعف العزم.

^٩ فأجابه جل الناس إلى المسير، إلا أصحاب عبد الله بن مسعود وعبيدة السلماني، والربيع بن خثيم في نحو من أربعائة رجل من القراء فقالوا: «يا أمير المؤمنين، قد شككنا في هذا القتال مع معرفتنا فضلك؛ الدينوري، ابونحنيفه، اخبار الطوال، ص ١٦٥

^{١٠} ثُمَّ لَا تَبْتَهُهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ... سورة الأعراف، الآية ١٧

فالشباب المقبل على الزواج مثلاً، إن لم يمتلك بصيرة ومعرفة، قد يقع بدلاً من التفكير الواعي والمشاورة في دوامة من التردد والقلق. وكذلك مريض يُسلط فكره على مستقبل مجهول بدل التركيز على العلاج. هنا يبدأ الشيطان بتغذية هذا الاضطراب حين يضعف **التوكل** وتغيب الرؤية الإيمانية.

أما النظرة التوحيدية فترى التغيير فرصة للارتقاء والتهديب لا تهديداً. يقول تعالى: "الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"^{١١} فالمؤمن يزن كل حدث بميزان موقعه في نظام الخلق، فيبلغ السكينة والاطمئنان.

ولمواجهة فتن التغيير، ينبغي كبح الانجرار وراء توقعات مستقبلية متواصلة، وإعادة التركيز إلى "الآن". القلق وليد البقاء في مستقبل غير موجود، بينما الحضور في الحاضر يمنح سيطرة ووضوحاً ويغلق باب الوسواس. كذلك فإن الاستشارة مع أهل الحكمة والبصيرة—ليس الذي يقدم مواسة عاطفية فقط— تمنح قرارات متسرعة وانفعالات حادة.

والارتباط بالله، ولو بأبسط صيغته، حاجز قوي أمام التسلل الشيطاني. ليس الأمر دائماً بحاجة إلى أذكار معقدة؛ أحياناً كلمة صادقة مثل: "اللهم أعني" تكفي لتفريغ الذهن من يد المتربص، لأنها تربطه بصاحب القدرة والطمأنينة.

كل تغيير يحمل فرصة لاكتشاف الذات، وقياس نقاط الضعف، واستنهاض قدرات كامنة، بشرط ألا يكون الإنسان خائفاً منه ولا هارباً. فمن كان توحيده حياً وهدفه واضحاً لا ينهار أمام التحولات، أما من ربط هويته بظروف خارجية وانقطع عن الله، فقد تهزّه أبسط التغييرات، وهنا يجد الشيطان أفضل لحظة للاختراق.

إن تأمل ما مرّ في هذا الدرس يكشف أن نفوذ الشيطان لا يبدأ من الخارج، بل من الشقوق الداخلية. وفي مقدمة ما يحمي الإنسان منها التفكير التوحيدي، إذ إن غياب حضور الله عن الوعي يجعل العقل ساحة لتميرير المخاوف والظنون. كما أنّ الشكر الحقيقي ليس مجرد لفظ، بل يقظة دائمة تحفظ ارتباط الإنسان ببارئه والغفلة حتى في أعمال دينية قد تفتح الباب للتسلل، لأن الشيطان لا ينتظر المعاصي المكشوفة. التغيير حين يُستقبل بلا بصيرة وتوكل يتحول إلى أرض خصبة للوسواس والقلق والضياع.

^{١١} سورة البقرة، الآية ١٥٦

فالنفوذ الشيطاني غالباً يبدأ خفياً، تحت عناوين تبدو خيِّرة أو روحية، لكن أثرها العميق يظهر لاحقاً في
تغيُّر اتجاهات وقناعات دون أن نشعر.

ما رأيكم؟ هل مررتم بتجربة بدت خيراً أو دافعاً روحياً، ثم اكتشفتُم لاحقاً أنها كانت وسوسة خفية غيِّرت
اختياراتكم؟

تسعدنا قراءة تجاربكم ومشاركاتكم.